الباب الثانى

الرعـايـة

الفصل الأول : الأمر بالرعاية .

الفصل الثانى : مدة الرعاية .

الفصل الثالث : تكامل الرعاية .

obeikandl.com

الفصل الأول

الأمر بالرعاية

رعاية النسل أمر فطرى فى النفوس البشرية، لا يشذ عنه إلا من فسدت طبيعته، فالولد قطعة من أبويه، يريان فى رعايته رعاية لهما كرعايتهما لبعض أجزاء الجسم بل أشد، كما قال حطان بن المعلىّ الأسدى:

وإنما أولادنا بيننـــا أكبادنا تمشى على الأرض

وكما قال النبى – ﷺ – عن فاطمة «فاطمة بضعة منى، يريبنى ما رابها، ويؤذينى ما آذاها»(١) ولأن فى رعاية الولد بقاء للنوع الإنسانى، لأنه يولد عاجزاً عن رعاية نفسه، فلو ترك لمات وانقرض النوع. بخلاف الحيوانات الأخرى التى يولد ولدها قادراً على الاستقلال بالعيش أغلب الأحيان.

أما من فسدت طبائعهم وقست قلوبهم – كمن قدمنا ألواناً منهم – فلا يكون شذوذهم مانعاً من الحكم بأن الطبيعة البشرية فى استقامتها تندفع تلقائياً إلى رعاية النسل، بل ذلك مراعى فى الحيوانات حين تلد، فهى تعطف على صغارها وتؤثرها على نفسها فى كثير من الأحيان. بل أن حنان الوالدين على أولادهما يظهر مبكراً حين تكون الفراخ خلقاً مستكناً فى البيض تحضنه الوالدة أو الوالد، لشعور كل منهما بأنه قطعة منه، يحافظ عليه كما يحافظ على جزئه، ونرى الأم الحاضنة للبيض تذب عنه من يقترب منه.

وتقوى عاطفة الأمومة بالذات حين يخرج الصغار، وذلك مشاهد لا يحتاج إلى دليل، فالقطة فى الدفاع عن صغارها، واللبؤة فى الدفاع عن أشبالها، بل

(١) رواه البخارى ومسلم عن المسور بن مخرمة.

الدجاجة فى الدفاع عن فراخها.. تظهر فيها عاطفة الأمومة بشكل واضح، يخشى على من يريد بهذه الصغار سوءاً أن يهلك من غضبة الأم، أو يضر ضرراً كبيراً، وإذا كان ذلك فى الحيوان فهو فى الإنسان أوضح. انظر حيلة سليمان عليه السلام فى اقتراح شق ولد تنازعته امرأتان، حيث تنازلت الأم الحقيقية عنه للأخرى، فحكم لها به.

وكان من تقدير الإسلام لعاطفة الأمومة فى الحيوان أن أمر النبى - ﷺ - برد الفراخ إلى عشها عندما رأى أمها تحوم حوله، والطائر هو «حمرة» كما رواه أبو داود عن أبى مسعود[1].

ونهى النبى - ﷺ - عن التفريق بين الأم وولدها، وذلك عند السبى، ففى الحديث «من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة» رواه الترمذى عن أبى أيوب، وقال: حسن غريب، والحاكم وصححه والدارقطنى[2].

وإذا حدث من بعض الآباء تقصير فى الرعاية أو قسوة ملحوظة على بعض الأولاد أحياناً، فذلك ناشىء عن عارض لا يغير من جوهر الحقيقة، وهى عطف الآباء على الأبناء، ويعبر بعض العلماء عن هذه الرعاية بقوله: إن رعاية الآباء للأبناء يدفع إليها خلقان أو عاملان، أحدهما لازم للطبع وهو الحذر والإشفاق، وثانيهما مكتسب وهو المحبة.

سأل كسرى غيلان الثقفى حين وفد عليه: أى ولدك أحب إليك؟ فقال: الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يبرأ، والغائب حتى يقدم. فقال كسرى: مالك ولهذا الكلام وهو كلام الحكماء وأنت من قوم حفاة لا حكمة فيهم؟ فما غذاؤك؟ قال: خبز البر، قال: هذا العقل من هذا البر، لا من اللبن والتمر[3].

---

(١) الترغيب والترهيب ج٣ ص٨١.
(٢) المرجع السابق ج٢، ص٢٣١.
(٣) أسد الغابة - ترجمة غيلان بن سلمة.

ومع هذا الشعور الطبيعي برعاية النشء حثت الأديان السماوية عليها، تأكيدا لهذا الوازع الطبيعي، وتنبيها لذوى الطبائع الفاسدة إلى واجبهم نحو أولادهم، يقول محمد بن على: إن الله رضى الآباء للأبناء فحذرهم فتنتهم ولم يوصهم بهم، ولم يرض الأبناء للآباء فأوصاهم بهم، وإن شر الأبناء من دعاه التقصير إلى العقوق، وشر الآباء من دعاه البر إلى الإفراط[1]. وقريب من هذا الكلام ورد عن زيد بن على بن الحسين لابنه يحيى[2].

وقد أملى منطق الفطرة على أعرابى أن يقول لأبيه عندما سبه وذكر له حقه: يا أبت إن عظم حقك علىّ لا يذهب بصغير حقى عليك، وإن الذى تمتّ به إلىّ أمت به إليك، ولست أزعم أنهما سواء، ولكن لا يحل الاعتداء[3].

وكان للإسلام نصيب كبير فى الحث على هذه الرعاية، من ذلك قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة** ﴾ [التحريم: ٦] فهو أمر للأولياء برعاية أهليهم – أزواجهم وأولادهم – وذلك بحملهم إلى الخير حتى لا يقعوا فى النار بمعصيتهم. وقوله ﴿ **وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها** ﴾ [طه: ١٣٢] وهو أمر للنبى – ﷺ – فهو للمسلمين عامة لعدم التخصيص. وليلتقى المعنى مع معنى الآية الأولى. وجاء فى الحديث «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، والأمير راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهل بيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها وولده، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[4]. وفى الحديث أيضاً «ولأهلك عليك حقاً»[5] وذلك فى قصة سلمان وأبى الدرداء، وجاء فيه أيضاً «إن لولدك عليك حقاً»[6]. وروى أحمد عن عائشة أن أسامة بن زيد عثر بعتبة الباب فدمى، فجعل النبى – ﷺ –

---

(١) أدب الدنيا والدين ص١٤٥.
(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة ج٧ ص٩٢.
(٣) محاضرات الأدباء للأصبهانى ج١ ص٢٠٥ والمستطرف للأبشيهى ج٢، ص٩.
(٤) رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر.
(٥) رواه البخارى ومسلم عن أبى جحيفة.
(٦) رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو.

يَمَصُّه ويقول «لو كان أسامة جارية لحليتها ولكسوتها حتى انفقها» وإسناده صحيح[1]، ومعنى «أنفقها» أجعلها رائجة يكثر خاطبوها، وسيجيء حديث «مروا أولادكم بالصلاة...» وسأل رجلٌ النبى - ﷺ -: مَنْ أَبَرّ؟ قال «بر والديك» فقال: ليس لى والدان، فقال «بر ولدك، كما أن لوالديك عليك حقاً كذلك لولدك عليك حق» ذكره أبو عمر التوقانى فى كتاب معاشرة الأهلين، من حديث عثمان بن عفان دون قوله «فكما أن لوالديك...» وهذه القطعة رواها الطبرانى عن ابن عمر. قال الدارقطنى: «إن الأصح وقفه على ابن عمر[2] إلى غير ذلك من النصوص التى وردت خاصة بنوع معين من الرعاية كالنفقة والتعليم والإرضاع والحضانة والتسوية والتسمية وغيرها.

وإلى جانب أمر الإسلام بهذه الرعاية رغب فيها وجعل فضلها كبيراً وثوابها عظيما، من ذلك قول النبى - ﷺ -: «أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على دابته فى سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله» رواه مسلم عن ثوبان بن بُجْدُد مولى النبى - ﷺ - قال أبو قلابة راوى الحديث: وبدأ بالعيال، ثم قال أبو قلابة: وأى رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم؟ وروى مسلم أيضاً عن أبى هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «دينار أنفقته فى سبيل الله، ودينار أنفقته فى رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك» قال ابن المبارك المتوفى سنة ١٨١هـ، وهو مع إخواته فى الغزو، تعلمون عملاً أفضل مما نحن فيه؟ قالوا: ما نعلم ذلك، قال: أنا أعلم، فما هو؟ قال: رجل متعفف ذو عائلة قام من الليل فنظر إلى صبيانه نياماً منكشفين فسترهم وغطاهم بثوبه، فعمله أفضل مما نحن فيه[3] ولعل هذا فى الجهاد المندوب، وفيما لو لم يكن للرجل من يعول أولاده ويرعاهم

---

(١) الإحياء ج٢، ص١٩٤.

(٢) الإحياء ج٢، ص١٩٣.

(٣) الإحياء: ج ص٢٩.

غيره، قياساً على إذن النبى – ﷺ – للشاب أن يتخلف عن الغزو لرعاية أبويه، وسيأتى فى الجزء الخاص ببر الوالدين.

وقد حذر الإسلام من إهمال رعاية الأولاد، لأن ذلك يؤدى إلى أخطاء تعود على النسل مادياً وأدبياً، وبالتالى على الآباء من العقوق والهموم وغيرها، وعلى الأسرة من التفكك والانحلال، وكذلك على المجتمع والوطن الذى كان يود أن يستقبلهم وقد أعدوا إعداداً صالحاً للنهوض بتبعات الإصلاح والتقدم، يقول النبى – ﷺ –: «إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته»(١) ويقول «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت» رواه أبو داود وغيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص وصححه، ورواه مسلم بلفظ «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته. ويقول شوقى:

ليس اليتيم من انتهى أبواه من ... هذى الحياة وخلّفاه ذليلا
إن اليتيم هو الذى تُلْفى له ... أمًّا تخلت أو أبًا مشغولا

ومن هنا أوجب الإسلام قيام وصىٍّ على الصغير حتى يبلغ أشده، وكذلك الحجر على السفيه حتى لا يضيع ماله ويفسد، قال تعالى ﴿**وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفًا * وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ [النساء: ٥، ٦]. ورد أن النبى – ﷺ – قال: «رحم الله والداً أعان ولده على بره» أى لم يحمله على العقوق بسوء عمله. رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب عن على بن أبى طالب وابن عمر بسند ضعيف، ورواه التوقانى من طريق الشعبى مرسلاً(٢).

* * *

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه عن أنس بن مالك. (٢) الإحياء ج٢، ص١٩٣.

الفصل الثانى

مدة الرعاية

إن رعاية النسل لا يقتصر التكليف بها على فترة وجوده الحسى المستقل بعيداً عن بطن أمه، بل تمتد إلى الوراء والوراء البعيد، فهى لازمة مدة وجود الجنين حملاً فى بطن أمه، بل قبل أن تحمل به حينما كان مجرد فكرة فى ذهن أبويه عند الإقدام على الزواج، فقد أمر الإسلام بحسن اختيار الزوجين، وتقدير الدين والأخلاق فى كل من الزوج والزوجة.

ومما يدل على أثر الاختيار فى الذرية قول الله تعالى فى شأن الغلامين اللذين حفظ لهما الكنز تحت الجدار الذى أصلحه الخضر ﴿**وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا**﴾ [الكهف: ٨٢]. وقد قال المفسرون: إن الأب كان هو الجد السابع، وجاء فى الحديث الذى رواه أحمد عن وهب: أن الرب قال فى بعض ما يقول لبنى إسرائيل «إنى إذا أُطِعْتُ رضيت، وإذا رضيت باركت، وليس لبركتى نهاية، وإذا عُصِيتُ غضبت، وإذا غضبت لعنت، ولعنتى تبلغ السابع من الولد». وفى كتاب «حسن الأسوة» حديث رواه ابن مردويه عن جابر عن النبى – ﷺ –: «إن الله عز وجل يصلح بصلاح الرجل الصالح ولده وولد ولده وأهل دويرته وأهل دويرات حوله، فما يزالون فى حفظ الله ما دام فيهم» وعن ابن عباس مثله. وفى المطالب العالية لابن حجر[1] من كلام محمد بن المنكدر، أخرجه الحميدى فى مسنده.

وفى القول المأثور[2]: تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس. أى أن صفات

---

(١) ج٣، ص١٧٧.

(٢) روى على أنه حديث وسبق فى بحث اختيار الزوجين جـ ١ ص ٢٠٧.

الوالدين تورث وتظهر فى الأولاد. وقد قال أبو الأسود الدؤلى لبنيه: يابَنىَّ قد أحسنت إليكم صغاراً وكباراً وقبل أن تولدوا، فقالوا: وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد؟ قال: اخترت لكم أماً لا تسبُّون بها. وقال الرياشى «٢٥٧هـ»:

فأول إحسانى إليكم تخيرى لماجدة الأعراق باد عفافها

وسيأتى فى التسمية أن سوء اختيار الزوج لزوجته كان سبباً فى عقوق الولد لأبيه.

وإذا تم الزواج وحدث الحمل وجبت العناية بالحامل نفسياً وطبياً، لأن أحوالها تؤثر على الجنين، على ما سيأتى بيانه. ومنع الإسلام إقامة الحد على أمه ما دام جنيناً، كما حدث مع الجهنية التى وجب عليها حد الزنى بالرجم، فأخره النبى - ﷺ - حتى وضعت الحمل، بل حتى فطم عن الرضاع كما رواه مسلم.

وكذلك حفظ للجنين حقه فى الميراث إذا مات مورثه قبل أن يولد، وأوجب الدية بالجناية عليه كما سيأتى. وبعد ولادة الولد تكثر حقوقه ومظاهر رعايته التى سنفصلها فى الأبواب والفصول الآتية. وكذلك إذا مات الولد لاحَقَتْهُ الرعاية أو استمرت الصلة بينه وبين أبويه، وذلك بوجوب ما يجب لكل ميت، وما يلزم حيَالهَ من الصبر وغيره. ففى الحديث «أطفال المؤمنين فى جبل فى الجنة يكفلهم ابراهيم وسارة حتى يردوهم إلى آبائهم يوم القيامة»(١) وحديث «من مات له أولاد لم يبلغوا الحنث...» وقد تقدم. وحديث أم سليم مع أبى طلحة عندما مات ولده ولم تخبره حتى قضيا ليلة طيبة، ودعا لهما النبى - ﷺ - فولدت وسماه النبى عبد الله وحنَكه، وجاء فى رواية البخارى: قال ابن عيينة: فقال رجل من الأنصار: فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرءوا القرآن، يعنى من أولاد عبد الله المولود(٢).

وقد نبه العلماء إلى المبادرة بالتربية منذ الصغر، خصوصاً من الناحية

---

(١) أحمد والحاكم عن أبى هريرة وهو صحيح.

(٢) رياض الصالحين - باب الصبر.

العقلية والخلقية، لأن نفوس الأولاد إذ ذاك أعظم ما تكون تهيؤا لقبول الأدب وتقويم الطبع. ومن قولهم في ذلك: اطبع الطين ما كان رطباً، واغمر العود ما كان لدنا. ومن أدب ولده صغيرا سرّ به كبيرا[1]. وقال ابن عباس: من لم يجلس في الصغر حيث يكره لم يجلس في الكبر حيث يحب، وهو في معنى قول الشاعر — وهو المعلوط كما في عيون الأخبار[2]:

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً ... فمطلبها كهلاً عليه عسير

وقال صالح بن عبد القدوس:

وإن من أدبته في الصبا ... كالعود يُسْقَى الماء في غرسه
حتى تراه مورقًا نضرا ... بعد الذى أبصرت من يُبْسه
والشيخ لا يترك أخلاقه ... حتى يوارى في ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد له جهله ... كذى الصبا عاد إلى بأسه
ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه

ومن أبيات تعويد الصحابة أولادهم على الصيام منذ الصغر، وإلهاؤهم عن الطعام بكرات الصوف، وكذلك حديث الأمر بالصلاة لسبع سنين.

* * *

(١) عقد الفريد: ج١ ص١٩٧.
(٢) ج١ ص٣٤٧.

الفصل الثالث

تكامل الرعاية

مَرَّ فى الكلام عن فلسفة الإسلام فى التربية الإشارة إلى أن رعاية الأولاد لابد أن تكون رعاية شاملة للنواحى المادية والأدبية والجسمية والعقلية والخلقية. لأن كل هذه المظاهر هى التى تكوّن شخصية الطفل، وكل منها يترك بصمته عليها إن قوية وإن ضعيفة، ومن أهم ما تجب العناية به الناحية الروحية والخلقية، فهى ثمرة التربية الجسمية والعقلية، والإنسان يقاس بكمالاته النفسية والأدبية قبل الكمالات الجسمية والمادية التى هى موجودة فى كثير من الحيوانات ومن الأشخاص الذين ينبذهم المجتمع، ولا يقدرهم الدين. يقول أبو الفتح البستى(٤٠٠هـ):

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته ... أتطلب الربح مما فيه خسران

أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان[١]

ويقول شاعر آخر:

ما وهب الله لامرىء هبة ... أفضل من عقله ومن أدبه

هما حياة الفتى فإن فقدا ... فأنّ فقد الحياة أليق به

جاء فى مذكرات الأخلاق[٢]: إن التربية الخلقية والروحية شرط أساسى من شروط التكيّف النفسى، لأنها تجنب الفرد الوقوع فى الخطأ، وتخفف عنه إلى حد كبير من حدة التوتر الذى يسببه تصارع الدوافع والاتجاهات. والأمن النفسى

---

(١) قيل أنها للأمير الراضى بالله – حياة الحيوان للدميرى – ثعبان.

(٢) جاد المولى وسالمان.

ملاحظ عندما يسلك الإنسان سلوكاً معيناً مشتقاً من قوانين الأخلاق التى تستند خاصة إلى الدين، لأن السلوك على هذا الأساس يجد له مرجعاً يرجع إليه عند الانطلاق إلى العمل وعند عملية التقويم للسلوك. ولما كانت هذه القيم ثابتة أصلية كان شعور النفس بالراحة والطمأنينة بالغًا أقصاه. ا هـ.

لقد بعث المنصور إلى من فى السجن من بنى أمية يقول لهم: ما أشد ما مر بكم فى هذا الحبس؟ فقالوا: ما فقدناه من تأديب أولادنا. وقد اتفقت العقول من قديم الزمان على أهمية الرعاية الأدبية، وجاءت الأديان مقررة لهذه الحقيقة، يقول لقمان: ضرب الوالد للولد كمطر السماء للزرع، ويقول بُزْرْ جَمِهْر: ما ورّث الآباء للأبناء خيراً من الأدب، لأن بالأدب يكسبون المال وبالجهل يُتْلِفُونه[1].

وكان للإسلام القِدْح المعلَّى فى التوصية بتربية الأولاد، وقد مرت بك نصوص كثيرة فى الرعاية العامة من الناحيتين المادية والأدبية، وفى الرعاية الأدبية خاصة يقول النبى - ﷺ -: «ما نحل والد ولداً من نُحل أفضل من أدب حسن» رواه الترمذى عن أيوب بن موسى عن أبيه عن جده، وقال: حديث غريب، وقال المنذرى: إنه مرسل[2] ويقول أيضاً «لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق بصاع» رواه الترمذى عن جابر بن سمرة وقال: حسن غريب[3] ويقول «الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم» رواه ابن ماجه عن ابن عباس، ورواه عن أنس بلفظ «أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم» وهو ضعيف. وفى البيهقى من حديث مسلم بن ابراهيم عن شداد بن سعيد الجريرى عن أبى سعيد وابن عباس عن النبى - ﷺ -: «من وُلد له ولد فليحسن اسمه وأدبه، فإذا بلغ فلْيزوجه، فإن بلغ ولم يزوجه فأصاب إثماً فإثمه على أبيه»[4] وستأتى أحاديث أخرى فى أنواع خاصة من الرعاية الأدبية. يقول على كرم الله وجهه: أدبوهم وعلموهم.

---

(١) العقد الفريد ج١، ص١٩٢.
(٢، ٣) الترغيب والترهيب ج٣، ص٢٠.
(٤) ذكره ابن القيم فى تحفه الودود.

وفى كتاب المحاسن والمساوى للبيهقى ومحاضرات الأدباء للأصبهانى[1] إن أبا مريم مؤدب الأمين والمأمون ولدى الرشيد ضرب الأمين فخدش ذراعه، فدعاه أبوه إلى الطعام، فتعمد أن يحسر الأمين عن ذراعه فرآه الرشيد، فسأله، فقال: ضربنى أبو مريم، فبعث الرشيد إليه وسأله عن ضرب الأمين: ما بال محمد يشكوك؟ فقال: غلبنى خبثًا وعرامة، فقال الرشيد: اقتله، فلأن يموت خير من أن يموق. والمَوْق هو الحمق والغباء، والعُرَام والعَرَامة القوة والشراسة، ورجل عارم أى شرير خبيث، وسيأتى مزيد لذلك عند الكلام على مادة التربية.

* * *

(١) ج١ ص٣٠.

obeikandl.com